شخصيات تاريخية

٤ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

لعل من الغريب أن نرى الديمقراطية الأثينية لا تفي تيموستوكل حقه من المجد والسلطان بعد انتصاره في معركة سلاميس، بل على العكس من ذلك تنكرت له. ونحن لا نستطيع أن نبخسه حقه كما فعلت معه الديمقراطية الأثينية، فشأنها في هذا ربما لا يختلف في قليل ولا كثير عن شأن الديمقراطيات الأخرى في القديم أو الحديث. ويحدثنا هيرودوت أنها ذهبت إلى أبعد من هذا فعملت على أن تتخلص منه، فأرسلته في بعثة إلى أسبرطة ليطلب إليها أن تمد يد المعونة الحربية إلى أثينا في أقرب فرصة ممكنة؛ ولكنه فشل في هذه البعثة وعاد إلى وطنه فاستقبله مواطنوه استقبالاً فيه شيء كثير من الفتور، وأخذ عليه الأثينيون بوجه خاص كبرياءه وغطرسته، وحان وقت الانتخابات فلم يظهر اسمه من بين المنتخبين ليكونوا الاستراتيج العشرة وهم المشرفون على الحكم في الدولة، وأبعدوه عن الحكم وفضلوا عليه زعيم المحافظين وهو أرستيد. ولعل هناك وجهاً للمقارنة بين هذا الموقف وموقف الديمقراطية الفرنسية غداة انتصارها في الحرب العالمية الكبرى الماضية، إذ تنكرت هي الأخرى لزعيمها وصاحب الفضل في انتصارها وهو كليمنصو فلم تنتخبه رئيساً للجمهورية؛ بل فضلت عليه شخصاً دونه في العبقرية، بل إنه يعد في حكم المتوسطين. وتعليل هذا بسيط: ذلك أن الديمقراطية تخاف على نفسها من هؤلاء الأبطال الذين يحرزون لها هذا النصر ويشيدون لها هذا المجد أن تحدثهم أنفسهم أن يحكموها عن طريق العنف والاستبداد كما فعل دكتاتور يستبد بالسلطة بعد اشتداد أمره وازدياد أتباعه، أو بعد نصر يصيبه في معركة التحم فيها أو بعد نجاح في بعثة أوفد إليها. ومن الطبيعي أن يكون عدم عرفان الجميل على هذا النحو سبباً من الأسباب التي أدت إلى حفيظة تيموستوكل ضد بني قومه، فكانت هذه الغلطة في نظرنا أولى الخطوات التي أدت إلى تطور تيموستوكل من جانب اليونان إلى جانب الفرس حتى جعلته يقلع عن خدمتهم إلى خدمة أعدائهم

هذه الحركة مظهراً من مظاهر تنفيذ مشروع السنوات الأربع الثانية إذ أنه اتصل بحركة إنشاء المصانع الجديدة الخاصة بتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد.

ولقد وجه إلى حركة إنشاء مساكن العمال ولا سيما التي تقوم على إنشائها المنشآت الصناعية كثير من أوجه النقد، إذ أن هذا من شأنه زيادة اعتماد العامل على مخدومه. والواقع أن خطة الدولة الألمانية تجاه عمالها ذات وجهين، فهي من جهة تجعل من العمال شبه أرقاء لا حول لهم ولا قوة، فترهقهم بالعمل وتحدد لهم أجورهم وساعات العمل ونوعه ومكانه كما تشاء وإذا بها من الجهة الأخرى تعتنق بعض الإصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها المجتمع الرأسمالي اليوم

ومن الخير أن نقرر أن طموح ألمانيا نحو هجرة صناعاتها من المدن الكبيرة ونقل العمال إلى الريف لم يتحقق إلا على نطاق ضيق وإن كان ما زال غرضاً نسعى لتحقيقه

* * *

هذه هي المعالم الأساسية للنظام الاقتصادي النازي؛ وتلك هي الاتجاهات التي يسير فيها، يبدو من تقصيها مدى الفراغ الواسع الذي يفصل بينها وبين النظم الاقتصادية الحرة التي تسير عليها دول كبريطانيا العظمى ومصر وفرنسا والولايات المتحدة. وعلى الذين ينظرون إلى هذا النظام من حيث النتائج التي حققها من انتفاء التعطل من ألمانيا ونشاط جهازها الاقتصادي أن يستعرضوا الظروف التي أحاطت بقيامه ثم وجوده، والأسباب التي عملت على وصوله إلى النتائج التي وصل إليها. وفي مكنة الدول الأخرى أن تستفيد من دراسته وأن تأخذ ببعض أساليبه التي حققت فوائد لألمانيا، على أن يلاحظ في تطبيق هذه النواحي أتم الحيطة والحذر، فألمانيا تخالف في روحها ونظمها وتقاليدها الشعوب الحرة الأخرى. فالأخذ بالنظام الاقتصادي الألماني وتطبيقه على علاته كما يبدو لبعض قصار النظر من الناس أمر لن ينتج منه سوى هدم كيان بلادهم وزعزعة نظمها الاقتصادية والاجتماعية وتعريضها للانهيار.

فؤاد محمد شبل
مفتش تموين اسكندرية

وبالرغم من هذا يتجاهل تيموستوكل هـذا التنكر وينسى نفسه ومطامعه ومصالحه الشخصية فيتفق مع خصمه ومنافسه الزعيم أرستيد على برنامج للاصلاح القومى الغرض منه بعث أثينا وإعادتها إلى الحياة بعد أن كانت قد أوشكت على الفناء على أثر غزوة أجرزسيس لها ، وذلك ببناء ما دمر من بيوتها وإصلاح ما خرب من أراضيها ، وكان أساس هذا البرنامج السياسة اليونانية الشهيرة التى مؤداها أن يجعل أثينا تعتمد على ميناء بيريه ، وكذلك الأرض تعتمد على البحر

وهذا البرنامج واسع شاسع لا يمكنه أن يتمه فى يوم وليلة ؛ لذلك نجده يفضل الأهم على المهم ، والضرورى على الزائد عن الحاجة ، فيشجع على البدء أولاً بإقامة التحصينات اللازمة للدفاع عن الدولة بعد تخريب الفرس لها ، أما بناء البيوت وإزالة الخرائب والأنقاض عنها ؛ وأما إقامة المعابد الجميلة التى تناسب الآلهة فإنه يعمل على تأخيرها إلى فرصة أخرى مناسبة ؛ ثم نراه يحث قومه على الإسراع فى بناء هذه التحصينات حتى يتموها فى شهر واحد تقريباً ، وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت أثينا محاطة بسور متين يبلغ طوله ٩ كيلو مترات

وأنت لا تستطيع أن تظن أن تنفيذ هذا البرنامج سهل يسير ، كلا ثم كلا ! ذلك أن أعداء أثينا واقفون لها بالمرصاد ، مثل الدول المحيطة بها ، كأريجينيا وميجارا وكورنث . وقد فهمت هذه الدول القصد الذى ترمى إليه أثينا ، فأخذوا يتربصون لها ويحقدون عليها ، وعلى الأخص بعد موقعة سلامين ، لأنها كانت تعتبر صاحبة الفضل الأول فى إحراز النصر لليونان جميعاً ، وقد طلبت هـذه الدول إلى أسبرطة التى كانت على رأس الحلف البيلوبونيزى أن تعمل على هدم هذه الأسوار ، فهى تخاف من أثينا أن تستطيع وحدها الوقوف على أقدامها فتنجح فى الدفاع عن استقلالها ضد كل دولة تحدثها نفسها بغزو أراضيها ؛ فإذا ما تمكنت من الدفاع عن هذا الاستقلال والمحافظة عليه ربما أمكنها أن تلعب دوراً مهماً فى البيلوبونيز وفى غير البيلوبونيز . وقد لبت أسبرطة هذا النداء وأرسلت سفراء من قبلها يتكلمون باسمها أمام المجالس الأثينية ، ولكن تيموستوكل يفسد عليهم خطتهم بسلوكه مسلك الحيل والخداع ؛ فهو يحرض قبل كل شىء على أن تقام هذه التحصينات فى أقرب وقت مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ، فتمكن من أن يحصل من مجلس « البولى » على قرار بإرساله هو على رأس سفارة إلى أسبرطة لمفاوضة أهل الحل والعقد هناك ، وفى الوقت نفسه طلب إلى أعضاء سفارته هذه أن لا يبرحوا أثينا حتى يتم بناء هذه التحصينات ؛ ثم ذهب إلى أسبرطة وأخذ يفاوض ويفاوض ويماطل فى المفاوضة حتى فطن إلى ذلك أعداؤه وأعداء بلاده ، فنبهوا أسبرطة إلى هـذا الخداع وطلبوا إليها الإسراع فى العمل على تنفيذ رغبتهم حتى لا يفلت الأمر من يدهم وبدها . فترسل أسبرطة سفارة ثانية إلى أثينا ولا تكاد تصل هذه السفارة إلى هذه المدينة حتى تكون الأسوار قد تمت بفضل تفانى جميع المواطنين من شيب وشبان ونساء وأطفال فى إتمامها ، فاستطاع بعد ذلك أعضاء وفد تيموستوكل مبارحة أثينا والانضمام إليه فى أسبرطة ، فلما رآهم قد أصبحوا إلى جانبه خلع النقاب وكشر عن الأنياب ورفع الصوت عالياً معلناً لكل من يريد أن يستمع له أن بلاده لا تخضع لوعيد ولا لتهديد ، وأنها إذا أرادت أن تأتى أمراً فى داخل بلادها فهى وحدها صاحبة الأمر فى ذلك ، وهى حرة التصرف فى شؤونها الداخلية لا تقبل من أية دولة ولا من أية جهة أن تتدخل فى أمورها ؛ لذلك فإنها ترفض طلب أسبرطة وحلفائها . وما استطاع تيموستوكل إعلان هذا الرأى إلا بعد أن رأى أن وطنه قد استطاع الظفر فى الحرب ضد الفرس ، بل وأن هـذا الظفر يرجع قبل كل شىء إلى جهود بلاده وتضحياتها ، فإن كانت الدول اليونانية الأخرى قد ساهمت فى إحراز هذا النصر العام فإن هذه المساهمة ضئيلة لا تعد شيئاً مذكوراً إلى جانب ذلك المجهود الجبار الذى بذلته أثينا ، فالعدو قد خرب أراضيها وانتهك حرمة معابدها وأراضى آلهتها ، والأثينيون بعد ذلك شردوا أيما تشريد ، وهاجروا من وطنهم إلى بلاد سلامين على نحو ما ذكرنا فى المقال السابق ، والأرض الأثينية كانت الميدان الذى قاسى الأهوال ، وتحمل الكوارث والمصائب . أما البلاد الأخرى فى البيلوبونيز فلم تقاس شيئاً من أهوال هـذه الحرب . أفهل يحق لها بعد ذلك أن تقسو على أثينا ، وأن تطلب إليها أن تكون مجردة من كل وسيلة من وسائل الدفاع ، وخاصة وأن تيموستوكل

ومعه الأثينيون ما يزالون يعتقدون أن الحرب لم تنته وأن الفرس ربما يرجعون مرة أخرى لغزو بلادهم ؟ كلا ! إن ذلك لا يمكن أن يحدث بعد الآن فالدولة الأثينية قد أصبحت رشيدة تستطيع أن تدافع عن مصالحها وحقوقها ، بل وأن تذهب إلى أكثر من ذلك فتتسامى عن السياسة القانية إلى السياسة العامة ، وهى سياسة الدفاع عن جميع بلاد اليونان قاطبة . لم يسع أسبرطة أمام هذا الإصدار إلا أن ترضخ فتركت أثينا وشأنها . وقد لامها حلفاؤها وعابوا عليها هـذا المسلك فوصفوه بأنه ينم عن الضعف والتخاذل والإهمال ، لأنه من غير شك سيساعد أثينا على المضى فى طريقها بعـد أن رأت أن أكبر الدول اليونانية لا تستطيع أن تمنعها من تحقيق سياستها ، فتشجعت ونهضت بعد هذا البعث الجديد وتمكنت من أن تسير قدماً إلى الأمام لتنفيذ سياستها الأمبريالية وهى سياسة التوسع والفتوح

نجح إذن تيموستوكل فى هذه المهمة ، وهى إحاطة أثينا بالأسوار والتحصينات ، ولـكنه لم يهدأ له بال بعد ذلك إذ رأى أن هذه الأعمال الدفاعية لا تحقق الغرض منها إلا إذا أكملت بأعمال أخرى فى ميناء بيريه . فيوجه إلى هذا الميناء كل جهوده لاعتقاده الجازم أن هذه الأعمال كلها مرتبطة ببعضها تمـام الارتباط ، فلا يصلح عمل منها دون أن يتم العمل الآخر ، وهو كثيراً ما نادى — على نحو ما رأينا فيما سبق — أن مستقبل أثينا على البحار ، لذلك لم يكن من الغريب أن تكون سياسته كلها موجهة نحو البحر ، بل مرتكزه على البحر ، فالبحر فى نظره عماد كل شىء كما قال فى تلك العبارة الشهيرة التى أوردناها منذ حين : « أن الأرض الأثينية تعتمد على البحر والمدينة تعتمد على ميناء بيريه » . وتنفيذاً لهذه السياسة يعمل على إحاطة ميناء بيريه هى الأخرى بسور ، وقد تم ذلك فبلغ طوله عشرة كيلو مترات بعد أن بناه من الأحجار الضخمة التى استخرجها من المحاجر المجاورة . بل ربط تيموستوكل هذا الميناء الجديد بالميناءين المجاورين وهما « زيا » و « مونخيا » وجعلها كلها ميناء واحدة ومدينة واحدة ، وشجع الناس على أن يفدوا إليها من الخارج ، أى من البلدان القريبة منها ، فأقبلوا زرافات ووحداناً ، بعد أن رأوا أنفسهم قد أعفتهم هذه المدينة من الضريبة الثقيلة المسماة atéleia وهى التى كانت تفرض على كل أجنبى يريد أن يقيم بها ، فكثر سكانها وازدحموا ازدحاماً عظيما حتى أصبحت بعد ذلك أهم ميناء فى البحر الأبيض المتوسط ، واعتبرت قلب الإمبراطورية الأثينية النابض . ففيها يرسو الأسطول وهو عماد الإمبراطورية الأثينية البحرية ، ومنها تصدر الصادرات الأثينية وإليها ترد الواردات من الخارج ، كالقمح والخشب والمعادن من البلاد المحيطة بالبحر الأسود أو من آسيا الصغرى ومصر ، وكذلك من طريق الغرب من صقلية وبلاد اليونان الـكبرى فى جنوب شبه جزيرة إيطاليا

سار الشعب الأثينى وراء تيموستوكل واتبع نصائحه ونفذ إرشاداته وتوجيهاته ولـكن إلى حين ؛ ثم سحب بعد ذلك ثقته من هذا البطل ومنحها لخصومه زعماء الحزب الأرستقراطى ، وكان من أبرزهم فى ذلك الوقت أرسيتد الذى طالما ذكرنا اسمه وشخصية أخرى جديدة ظهرت إلى جانبه ثم حلت محله بعد ذلك فى زعامة هذا الحزب ، هى شخصية الشاب الأرستقراطى سيمون بن ملتياد بطل ماراثون . وكانت هذه الشخصيات الثلاث عبارة عن ثالوث يوجه شؤون الدولة ويدير دفتها فى هذه الحقبة من التاريخ

تتغلب هاتان الشخصيتان الأرستقراطيتان ، أرستيد وسيمون ، فى عالم السياسة الأثينية بقدر ما تتوارى شخصية تيموستوكل ويأفل نجمه ، وتتفق هاتان الشخصيتان على السياسة الخارجيـة وهى تقضى بالانصراف إلى شؤون حلف ديلوس والاهتمام بأمره حتى يكمل تنظيمه فيستطيع حينئذ أن يحقق الغرض الذى من أجله أسس وهو الدفاع عن اليونان فى بحر إيجه وفى غرب آسيا الصغرى ضد الفرس ، وهما لا يترددان ، فى سبيل تنفيذ هذه السياسة ، عن الاتفاق مع اسبرطة وتقسيم مناطق النفوذ معها ؛ فلها البر ولأثينا البحر . أما تيموستوكل فيقول بغير هذا ، يقول بتوجيه الاهتمام إلى حلف ديلوس ولـكن على أن يكون هذا الحلف هو القوة المسيطرة وحدها فى بلاد اليونان جميعاً ، فيجب أن تكون لأثينا السيادة فى جميع أجزاء العالم اليونانى ، وهو يعلم تمام العلم أنه لا يستطيع تنفيذ هـذه